"متن الجوهر المكنون في الثلاثة فنون".للشيخ عبد الرحمن الاخضري .دراسة وصفية.

أ.أحمد حاجي
جامعـة ورقلـة

تهدف هذه المداخلة إلى وصف مخطوط يتعلق بعلوم البلاغة و عنوانه متن الجواهر المكنون في الثلاثة فنون، للشيخ عبد الرحمن الأخضري.

التعريف بالمؤلف

ولد الأخضري في بنطيوس ، وهي قرية في نواحي بسكرة، و هناك نما و شب، و أخذ العلم عن والده الذي كان من علماء عصره , و طلب العلم بتونس و أخذه على مشائخ جامع الزيتونة ؛ و يذهب معظم المؤرخين إلى أنه عاش ثلاثا و ثلاثين سنة (920 هـ – 953 هـ)، و جاء في مقالة للشيخ المهدي البوعبدلي نشرت بمجلة الأصالة يناير 1978 أن الأخضري عاش إلى سنة 981هـ استدلالا ببيت من نظم الأخضري. في عام إحدى و ثمانين سنه ... من بعد تسعمائة مستحسنة .

و يرى أبو القاسم سعد الله أن هذا الاستدلال ضعيف لأن البيت قد يكون فيه تصحيف من النساخ بقراءة (إحدى و ثمانين بدل (إحدى و ثلاثين)).

و كان الشيخ عالماً يؤلف المتون و يشرحها و يجمع الكتب، و يجلس للدرس و استقر به الحال في زاوية بنطيوس في ضواحي مدينة بسكرة .و أثر الأخضري بعلمه أكثر مما أثر بتصوفه، و تدرس كتبه في المشرق و المغرب، وتوضع عليها الشروح و الحواشي.

و المخطوط الذي بين أيدينا يتعلق بعلوم البلاغة ، و اقتصرنا في هذه المداخلة على الجانب الشكلي و جانب المضمون.

. الجانب الشكلي : يقع المخطوط في ثماني عشرة صفحة، و هو عبارة عن أرجوزة في البلاغة كتب بخط مغربي، واضح مع وجود تسطير تحت بعض الكلمات.

. كتابة كلمة في آخر الصفحة للإحالة على تتابع الصفحات. و عددها بهذا الأسلوب ثمانية فقط.

. صنف الأخضري المخطوط إلى مقدمة ثم فنون البلاغة، وهي مقسمة إلى أبواب وفصول فخاتمة.

. وجود فواصل بين صدر البيت وعجزه.

. المضمون: ابتدأ الشيخ عبد الرحمن الأخضري متن الجوهر المكنون بالبسملة والصلاة على النبي ثم ذكر عنوان هذا المخطوط.

وتضم الورقة الأولى سبع عشرة بيتا شعريا، وبدأها بحمد الله وذكر نعمه وشكره على ما أولاه للعلماء على شمس البيان، فأدركوا معجزات القرآن وما احتواه من أسرار، ثم الصلاة على النبي ما ترنم حادي يسوق العيس إلى البقاع المقدسة، ويذكر الصحابة أهل التقوى والفضل، وفضل القرآن على من اعتكف على التدبر فيه ؛ وبين الأخضري فضل معرفة علوم البلاغة من البيان والبديع والمعاني، في علم أسرار اللسان العربي، ودرك ما اختصت به العربية من ميزات.

ويذكر عنوان هذا المؤلف فيقول:

سميته بالجوهر المكنون *** في صدف الثلاثة فنون.

ويشتمل المتن على:

المقدمة: وذكر فيها الشيخ الأخضري الفصاحة من فصاحة المفرد وفصاحة التركيب.

وقسم فنون البلاغة إلى ثلاثة فنون:

1 . علم المعاني: يتضمن عدة أبواب. فالباب الأول في الإسناد الخبري. وعقد فيه فصلا للإسناد العقلي ؛ والباب الثاني في المسند إليه، وذكر فيه الحذف والذكر وأغراضها البلاغية، من التلذذ والتبرك والتعظيم والتشويق والتعجب والتهويل وغير ذلك، وأورد فصلا في الخروج عن مقتضى الظاهر وذكر الاعتبارات التي تدعو المتكلم إلى الخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر.

والباب الثالث في حذف المسند وذكره وأغراضهما البلاغية، والرابع: في متعلقات الفعل وحذف المفعول لإفادة التعميم وتحقيق البيان مع الإبهام، وذكر في الباب الخامس القصر. و عرفه بأنه تخصيص أمر بأمر، و هو قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفة، وينقسم القصر إلى حقيقي وإضافي، وباعتبار حال المخاطب فهو قصر إفراد وقلب وتعيين، وذكر في هذا الباب أيضا أدوات القصر، وأربع طرق يؤدى بها وهي النفي وإنما والعطف والتقديم.

والباب السادس يشتمل على أساليب الإنشاء وهي الاستفهام والأمر والنهي والنداء، والسابع في الفصل والوصل، أما الباب الثامن وهو الأخير فيشتمل على الإيجاز والإطناب والمساواة.

2 . علم البيان: وعرفه الأخضرى بأنه علم تأدية المعنى بطريق مختلفة ويتضمن البيان التشبيه والمجاز والكناية ؛ فالباب الأول في التشبيه: وهو اشتراك أمرين في المعنى، وذكر أركان التشبيه الأربعة: أداة التشبيه، وطرفا التشبيه (المشبه والمشبه به) ووجه الشبه.

أما طرفا التشبيه فيكونا: حسيين أي ما يدركان بإحدى الحواس، أو عقليين: أي يدركان بالعقل لا بالحس، أو مختلفين إذ يكون أحدهما عقلي والأخر حسي ، وذكر في هذا الباب وجه الشبه وهو ما اشترك فيه المشبه والمشبه به تحقيقا أو تخييلا؛ والتحقيق أن يتقرر المعنى المشترك في كل من الطرفين على وجه التحقيق، أما التخييل فلا يمكن وجوده في المشبه إلا على سبيل التأويل والتخييل.

وعقد الشيخ الأخضري فصلا في أداة التشبيه وغايته وأقسامه، من تشبيه مرسل ومؤكد ، ثم أغراضه من بيان حال المشبه وبيان مقداره، وبيان إمكان وجود المشبه، وتزيين المشبه والترغيب فيه وتقبيحه أيضا وتقرير حاله ؛ وذكر التشبيه المقلوب وباعتبار الطرفين وقسمه إلى أربع (تركيبا وإفرادا) ، وباعتبار الوجه فهو تمثيلي وغير تمثيلي والمفصل والمجمل والقريب والغريب.

والباب الثاني في الحقيقة والمجاز وعرف الحقيقة ثم قسم المجاز إلى مجاز عقلي وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له علاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي ، ثم المجاز اللغوي وقسمه إلى المرسل والاستعارة، و كما وضح الأخضري المجاز المرسل وعلاق اته فذكر الجزئية والكلية والآلية والمحلية والحالية والسببية والمسببية واعتبار ما كان واعتبار ما يكون.

كما ا ورد فصلا للاستعارة : وهي مجاز لغوي و اشار إلى الاستعارة التصريحية الأصلية والاستعارة المكنية، ومن ناحية التركيب والإفراد تنقسم إلى مفردة وهي ما كان المستعار فيها لفظا مفردا كما هو الشأن في المكنية والتصريحية، وإلى مركبة وهي ما كان المستعار فيها تركيبا، ويسميها البلاغيون الاستعارة التمثيلية وهي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ؛ وقسم الاستعارة باعتبار لفظها إلى أصلية وتبعية، وباعتبار الملائم إلى مطلقة ومجردة ومرشحة ، ورای أن أبلغ الاستعارات هي الاستعارة المرشحة.

وأورد فصلا في التحقيقية والعقلية. فقسم الاستعارة إلى تحقيقية وتخييلية، ومراده بالعقلية أي التحقيقية هي ما تحقق عقلا أو حسا، أما التخييلية فهي ما لم يتحقق لاحسا ولا عقلا، ثم أورد فصلا في الاستعارة المكنية وهي ما حذف فيها المشبه به أو المستعار له ورمز له بشيء من لوازمه. وأتبعه بفصل في تحسين الاستعارة ورأى أن جمال الاستعارة يتوقف على حسن وجه الشبه ؛ ثم فصلا في تركيب المجاز، وقسم المجاز المركب إلى قسمين : فالأول ما تقدم فيه الإسناد

الخبري، والثاني ما استعمل فيما شبه بمعناه الأصلي، وكان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد ويسمى استعارة تمثيلية.

. وعقد الأخضري فصلا في تغير الإعراب؛ ويليه الباب الثالث في الكناية، وعرفها بأنها لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز قصد هذلك المعنى، وذكر كناية الصفة وكناية الموصوف ثم الأغراض البلاغية للكناية؛ وعقد فصلا في مراتب المجاز والكنى.

3 . علم البديع : و الضرب الأول المعنوي ، فمن ألقابه المطابقة وتسم .ى الطبلق والتضاد والتكافؤ ، وهو الجمع بين متقابلين في الجملة سواء كان تقابل ضدّين أو نقيضين أو نوعين، والطباق نوعان : طباق الإيجاب وطباق السلب، ثم الموافقة وتسمى التناسب أو التوافق، ومراعاة النظير. وهو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد نحو (الشَّمْسُ وَالقمرُ بِحُسْبان)، ثم العكس وهو أن يقدم في الكلام جزء ا تم يؤخر، والتسهيم ويسمى الإرصاد وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل عليه إذا عرف الروي، ثم المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه صحبته تحقيقا أو تقديرا، والمزاوجة أن يقارن بين معنيين في الشرط والجزاء، والمقابلة والتورية وتدعى الإيهام، ثم الجمع والتفريق والتقسيم، والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم والجمع مع التفري ق والتقسيم ، ثم الل ف والنشر والاستخ دام والتجريد ؛ والمبالغة وهي ثلاثة أقسام : التبليغ والإغراق والغلو ؛ ثم التفريع وحسن التعليل، ثم المذهب الكلامي وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح، ثم الاستتباع والتوجيه وقصد الجد بالهزل، وتجاهل العارف وسماه ال سّكّاكي سوق المعلوم مساق غيره، ثم القول بالموجب وبسط الكلام فيه والاطراد.

أما الضرب الثاني فهو اللفظي و يشمل الجناس ، فعرفه بأن تجيء الكلمة تجانس أخرى باتحاد حروفها و نظامها، و ينقسم إلى تام و غير تام ، فالتام أن يتفقا في أنواع الحروف و أعدادها وترتيبها، فإن كانا من نوع كاسمين سمّي متماثلا، ثم المستوفي و جناس التركيب، و إذا اتفق المركب في لفظيه خطا سمي

متشابها و إن لم يتفقا في الخط سمي مفروقا، و إن اختلفا في هيئات الحروف سمي محرفا، أما الجناس الناقص ما اختلف اللفظان فيه في أعداد الحروف إما بحرف واحد، أو في الوسط أو في الآخر يسمى المطرف، و إما بأكثر ويسمى مذيلا ثم المجنح ؛ وإذا اختلف اللفظان في ترتيب الحروف سمي جناس القلب، ومنه قلب كل وقلب بعض ؛ ومن أنواع الجناس أيضا جناس الإشارة وذلك بأن يكون أحد اللفظين غير مصرح به، ومن أنواع الجناس اللفظي رد العجز على الصدر فيأتي مكررا وملحقا ومتجانسا.

وعقد الأخضري فصلا في السجع وهو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد و هذا ما قصده السّكّاكي بقوله : النثر كالقافية في الشعر، والسجع ثلاثة أضرب : المطرف والمرصع والمتوازي ؛ فالمطرف إن كان اللفظان مختلفين في الوزن، و المرصع ما استوت فواصله في الوزن والتقفية، و كان كل ما في إحدى الفقرتين أو جله من الألفاظ مثل ما يقابله من الأخرى، أما المتوازي فهو استواء الفاصلتين في اللفظ ولم توافق سائر ألفاظ أحدهما ولأجل ما يقابلها من أختها في الوزن والتقفية ؛ وراى الشيخ الأخضري أن أبلغ السجع المستوي، و هو الذي تساوت فقراته في عدد كلماته و ما طالت فقرته ؛ و أورد فصلا في الموازنة، و هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية، ومنها المماثلة وهي ما يكون في إحدى الفقرتين من الألفاظ مثل ما يقبله في الأخرى، و منها القلب، وهي أن يكون الكلام على ترتيب فيقرأ من آخره إلى أوله كما يجيء في أصل الكلام، و منها التشريع وهو بناء البيت على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منها، ومنها لزوم مالا يلزم وهو أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس يلازم للسجع ؛ ثم ذكر السرقات وهي أن يأخذ الشاعر كلام شاعر تقدم عليه، واتفاق القائلين إن كان في الغرض على العموم كالوصف بالشجاعة والسخاء فلا يدعى سرقة، وأخذ اللفظ كله أو بعضه سمي انتحالا و نسخا وهو مذموم، وإذا بدل بالكلمات أو بعضها ما يرادفها فهو المرادف، و إن تضمن تغييرا لنظمه و أخذ

بعض اللفظ سمي إغارة ومسخاً وإن أخذ المعنى وحده سمي إلماما و سلخا، ثم ذكر في هذا المتن التقسيم.

أما السرقة الخفية فالقسم الثاني فيها هي أن يغير المعنى بحيث لا يظهر بأنه مسروق إلا بعد تأمل، ومنه النقل والخلط والقلب والتشابه ، ويلي السرقة الخفية الاقتباس وهو تضمن الكلام نثراً أو نظماً شيئا من القرآن أو الحديث الشريف، وهو ضربان محول وثابت المعاني، والاقتباس جائز لإقامة وزن وتغيير نذر الألفاظ لا معانيها ؛ وذكر الأخضري التضمين والحل والعقد، فالتضمين أن يورد الشاعر شيئا من شعر غيره مع التنبيه عليه، والعقد نظم النثر أما الحل فهو نثر النظم، ثم التلميح والإشارة إلى قصة أو شعر أو مثل من غير ذكره ؛ ثم تذنيب بألقاب من الفن : وهو جعل الشيء ذنابة للشيء وتكميلاً له، والألقاب هي الأسماء ومنها ما يرجع للضرب المعنوي من البديع ومنها ما يرجع للفظي ومنه التوشيع والترديد والترتيب والاختراع والتعديد، كما ذكر التطريز والاستشهاد والائتلاف والاستطراد، وذكر الإحالة وهي قسمان خفيفة وجلية، والتلويح وهو الكناية البعيدة التي كثرت فيها الوسائط والتخييل ويسمى الإبهام وهو أقسام تسعة ؛ والفرصة والتسميط والتعليل ؛ والتحلية وهي عقد نثر القرآن أو الحديث بزيادة على ألفاظها، والتختم عقد قرآن أو حديث اشتملا على شيء من لفظهما، ثم التجريد والاستقلال والتهكم والتعريض والألغاز والتنزيل والتأنيس والإيماء ثم حسن التخلص.

وأورد الشيخ الأخضري فصلا فيما لا يعد كذبا، واشتمل على الإيهام وهو التورية، ومنه التهكم والمبالغة أو التغالي ما لم تكن محرمة أو كفراً.

واشتملت خاتمة هذا المتن على ما ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيه لفتا لانتباه السامع واشتمل على حسن الابتداء ويسمى بالالما ع أو براعة الاستهلال، ومنها صنعه الانتقال من المطلع إلى المقصود وهو ثلاثة أقسام : التخلص والاقتضاب وهو فصل الخطاب والإدراف بمشعر تمام الكلام.

وختمها بالصلاة على النبي (صلى الله عليه و سلم) وعلى آله وأصحابه، ثم ذكر تاريخ كتابة هذا المتن وهو شهر ذي الحجة تتميم نصف عاشر القرون أي سنة تسعمائة و خمسين هجرية.

وحاولنا في هذه المداخلة وصف المخطوط شكلاً ومضموناً والتعريف بما جاء فيه من فنون البلاغة والمساهمة قدر المستطاع بنفض الغبار عن هذا التراث البكر الذي يحتاج إلى كثير من العناية ومزيدا من التقصي والجهد الذي أحسب أن الكثيرين ممن تشبعوا بالعربية وتشبثوا بهويتهم وانتمائهم لازالوا يوقدون شمعة وينفضون الغبار عن هذا التراث البكر.

الهوامش

"متن الجوهر المكنون في الثلاثة فنون".للشيخ عبد الرحمن الاخضري. (مخطوط).